**المحاضرة الرابعة:**

**النسق الاسري ونظرية الانساق العامة:**

1- مفهوم النسق الاسري.

-2جذور التوجه النسقي في علم النفس.

3- تعريف المقاربة النسقية.

4- تاريخ ظهور المقاربة النسقية والعلاجات النسقية.

5- مفاهيم نظرية الانساق العامة ومبادئها.

6- العوامل المؤدية الى سوء الاداء الوظيفي للأسرة وتشخيصها.

**1- تعريف النسق الاسري:**

ان تعريف النسق (النظام) يستند على فكرة ان الكل لا يمكن فهمه الا من خلال دراسة اجزائه في علاقتها بعضها ببعض وفي علاقتها بالعملية الكلية للأداء، ويعرف النسق بانه نظام معقد لعناصر متفاعلة بعضها مع بعض، وبالتالي فمن غير الممكن فهم كل فرد من افراد الاسرة بصورة فردية بل لابد من دراسته ضمن نطاق السياق الكلي لأعضاء الاسرة.

ونظرية النسق أو النظام الأسري عبارة عن إطار عمل لفهم الأسر كنظام اجتماعي متداخل لحاجات وخصائص فريدة تميزه وتركز النظرية على افتراض أن الخبرة التي تؤثر على أحد أفراد الأسرة تؤثر على جميع أفرادها.

إن فلسفة هذا المدخل هي أن جميع أفراد الأسرة مترابطين بدرجة تعجل الأحداث التي تؤثر على أي فرد تؤثر على الجميع.. وتتبع هذه الطريقة القول بأنه كلما ازدادت مراعاة برامج العلاج للعلاقات والتفاعلات بين أفراد الأسرة كلما ازدادت فرصة نجاحها. بمعنى آخر أن الأسرة وليس الفرد هي التي من الضرورة بذل جهود التدخل لها.

في ضوء أن الأسرة نسق يؤثر ويتأثر بالمجتمع، يذهب كورسيني Corsini (1996) إلى أن من أهم خصائص النسق الأسري:

- الكلية: وتعني أن النسق يتفاعل ليس فقط مع فرد من الأسرة بل مع جميع أفراد الأسرة، ويوضح العلاقة فيما بينهم .

- العلاقة: والتي تشير إلى التفاعلات المستمرة في النسق. وبذلك يستخلص أن الفرد في النسق الأسري يسلك وفقاً لخصائص ذلك النسق، وبالتالي فاضطراب الفرد لا يعني اضطرابه ، ولكنه يعني اضطراب أسرة أفصح عن نفسه من خلال أحد أعضائها ، الأمر الذي يستدعي التدخل والعمل مع تلك الأسرة وتفهم مشكلاتها.

**-2جذور التوجه النسقي في علم النفس:**

ان اعتبار الاسرة نسقا له جذور عميقة في علم النفس تتصل بجذور التوجه النسقي التي بدأت مع عالم الاجتماع ''ايميل دوركايم'' حيث اعلن انه يمكن النظر الى أي جماعة إنسانية بوصفها نسقا، غير ان وجهة نظره لم تؤخذ بعين الاعتبار في تلك المرحلة، ثم جاءت معظم المسلمات الأساسية والمهمة الخاصة بنظريات الانساق وتطبيقاتها في مجال الجماعات الإنسانية من طرف عالم النفس الألماني ''كيرت ليفين'' وتسمى نظريته بنظرية المجال ثم تليها الفلسفة عبر التفاعلية الأصل ل ''ايريك بورن''، وقد قدم ''ليفين صيغتان اشتقهما من علم النفس الجشطلتي وتعدان صيغا أساسية لدراسة الانساق الاسرية وهما:

* ان الأجزاء والعناصر لا توجد بصورة معزولة عن بعضها البعض ولكنها تنتظم في صورة كلية.
* ان السلوك يتسم بالطابع الديناميكي أكثر مما يتسم بالطابع الميكانيكي.

وتليها الفلسفة عبر التفاعلية ل ''اريريك بورن'' وحسب المبدأ التعاملي يكون من الخطأ التفكير الذي يرى ان العلاقة بين شيئين يمكن ان يوجد بدون ان نأخذ في الاعتبار كيفية تفاعل العناصر الأخرى في النسق مع بعضها البعض (كفافي، 1999)

**3- تعريف المقاربة النسقية**:

تعرف المقاربة النسقية بأنها نظام جديد يجمع بين المقاربات النظرية والعملية والمنهجية المتعلقة بدراسة ما، ويعتبر معقد للغاية، إذ يطرح مشكلات الحدود والعلاقات الداخلية والخارجية أو الهياكل والقوانين والخصائص الناشئة التي تميز النسق.

كما تعرف بأنها مقاربة تتعلق بنموذج من الفكر والإجراء، يتجاوز كثيرا ميدان العمل الاجتماعي، وترتكز على تمثلات جديدة للواقع أخذت بعين الإعتبار عدم الإستقرار والانفتاح والتغيير والفوضى والغموض، والتعارض والتناقض والإبداع وغيرها من الخصائص التي كانت تدرك منذ وقت قريب على أنها غير علمية ، أصبحت وسائل مهمة لفهم تعقيدات الواقع، فهي تعرف كمقاربة تقترح وجهة جديدة حول الواقع وطريق لفهم المشاكل في تعقيداتها النسقية، ففهم الفرد من خلال هذه المقاربة يتعدى واقعه الداخلي ليشمل تحليل معطيات السياق المحيط به والقادرة على إعطاء معنى لما يمر به من أحداث بشكل عام.

وبالتالي هي تعمل على سرح سلوك الفرد في إطار الجماعة التي ينتمي إليها، مثل الزوجان، العائلة،... ويشكل الفرد جزءا من النسق وأي شيء يحدث داخل النظام يمارس تأثيره على باقي الأجزاء.

**4- تاريخ ظهور المقاربة النسقية:**

كانت بدايات ظهور المقاربة النسقية والعلاج الأسري النسقي بفضل الإسهامات الأولى لمعهد البحث العقلي (MRI ) Mental Research Institue ، بمدينة باولو ألتو (Palo Alto ) بمقاطعة كاليفورنيا الأمريكية، وتشكل هذه المقاربة أكبر ثاني قطب في العلاجات النفسية بعد التحليل النفسي الفردي وتعتبر كثمرة لاجتماع العديد من المعالجين والباحثين ووليدة الإلتقاء بين العديد من الميادين: الأنثروبولوجيا خاصة التيار الثقافي (Bateson et Sullivan ) (1949- 1962)، التحليل النفسي (Freud )، وعلم الإجتماع وعلم دراسة الحيوان (éthologie )، والبيولوجيا، الفيزيولوجيا، السبرانية أي علم الضبط (cybernétique )، ونظرية الأنساق (Bertalanffy )، ونظرية الإتصال (watzlawick)، وديناميكية الجماعة (Lewin ).

حيث إتفقوا على إنشاء هيئة علمية تبحث وتدرس خصائص النسق الإنساني، ومن هنا تم الإتفاق بالإجماع على وضع معهد للبحث العقلي (MRI) تحت إدارة العالم الأمريكي غريغوري باتسون (Grégory Bateson)، خلال السنوات ما بين (1949-1962)، حيث بدأ البحوث الأولى حول نظام التواصل في الجماعات الأسرية، وركز الباحثون في هذا المعهد على محاولة فهم السلوكات التواصلية في إطار النسق الأسري  وذلك الى غاية 1968.

يمكن أن نقول أن مدرسة Palo Alto قد تكونت من فريقين مهمين: الفرقة الأولى بزعامة Bateson (1950) والتي ضمت Don jackson و J.H Weak Land و J.Haley، أما المجموعة الثانية فتكونت في 1958 مع Don Jackson حيث ضمت الأسماء التالية: V.satir و P.Watzlawick وإنضم إليهم لاحقا كلا من J.Haley و J.H. Weakland في 1962، وعلى هذا الأساس يعتبر Bateson و Jackson على أنهما الشخصيتين المركزيتين في مدرسة Palo Alto ، فقد عمل كلاهما على نسج وبناء الإطار الذي تطورت فيه النظريات والتطبيقات العيادية اللاحقة.

1. **مفاهيم نظرية الانساق العامة ومبادئها:**

يمكن تلخيص مفاهيم نظرية الانساق العامة في النقاط التالية :

**- التوازن:**

تسعى نظرية الانساق العامة الى الوصول الى مستوى من التوازن ،ويحدث ذلك من خلال عمليتي الاستيراد والتصدير للطاقة، ويعمل هذا المفهوم على عدم السماح في التصدير او الاستيراد اكثر مما يجب، وهكذا يحدث التوازن، اي ان حجم التصدير للخارج يجب ان يساوي حجم الاستيراد.

تميل الانساق بشكل عام الى تحقيق مستوى من التوازن من خلال استيراد الطاقة وتصديرها، وفي حال حدوث اختلال في توازنها فانها تسعى بشكل تلقائي لاستعادة هذا التوازن للحفاظ على بقائها، اما في حال اختلال اتزانها فان ذلك قد يكون من اسباب فناء النسق وانتهائه.

**- فقدان الطاقة:**

يكون لدى كل نسق مستوى محدد من الطاقة يستغله في تفاعلاته الخارجية، ويشير فقدان الطاقة الى العملية التي يبدا فيها النسق في تصدير الطاقة اكثر من تلك التي يستوردها، وبالتالي تقل طاقته مما يؤثر على توازنه، كما تشير الى تلك الطاقة الضائعة التي لا يقوم النسق باستغلالها، مما يؤثر في قدرة النسق على تحقيق اهدافه بشكل فعال.

**- تخزين الطاقة:**

حيث يعرف هذا المفهوم بانه عندما يبدا الانسان باستيراد طاقة من المحيط الخارجي اكثر من الطاقة التي يصدرها للبيئة الخارجية فيصبح لديه مخزون طاقة مرتفع.

**- الحدود:**

يعرف هذا المفهوم على انه امتداد دائرة كاملة حول مجموعة من المتغيرات حيث يكون تبادل الطاقة داخل هذه المتغيرات.

**- التغذية العكسية:**

يشير هذا المفهوم الى عملية التقويم التي تحدث للمدخلات والمخرجات التي يستوردها ويصدرها النسق اثناء عملية تفاعله مع البيئة الخارجية، اي انها النتيجة التي تحدث نتيجة للتفاعل وتساعد على نمو النسق واستمرار تفاعله، وتشكل عملية التغذية العكسية نمطا من التقويم للنسق وهناك نوعان من التقويم احدهما داخلي والذي يقوم به افراد النسق للتحقق بمدى رضاهم عن كيفية التفاعل، وخارجي من خلال استجابة ورضا الانساق في البيئة الخارجية عن اداء النسق.

**اما فيما يتعلق بمبادئ نظرية الانساق العامة فيمكن تحديدها في النقاط التالية:**

* **مبدأ الكلية: (Principe de totalité)**

يعتبر النسق المفتوح على أنه "كل" في إنسجام وظائفه. معناه كل عنصر هو مربوط بالعناصر الاخرى واي تغيير يحدث في هذا النظام يؤدي الى تغيرات في العناصر الاخرى وبالتالي الى احداث التغيير في النظام ككل.

* **التغذية المرتدة: (Rétroaction)**

يدخل مبدأ التغذية المرتدة فكرة التأثير المتبادل داخل نفس النسق، وهذا ما يشرح لنا فكرة السببية الدائرية والتي تسمح بتوضيح أن سلوك الفرد يكمن أثره في سلوك الآخر، والذي يؤثر بدوره على سلوك الأول. وبالتالي العناصر داخل النسق تكون في تفاعل دائري ارتجاعي والهدف منه معرفة العلاقة الموجودة بين عناصر هذا النسق (دراسة السيرورة التفاعلية) بدلا من دراسة الاسباب او النتائج.

هي الوسيلة التي يحتفظ من خلالها النسق بحالة الاستقرار وعندما يخرج النسق عن توازنه لاي سبب تعمل التغذية المرتدة السالبة بوصفها عملية مثيرة ومنشطة للخطا لمساعدة النسق على استعادة التوازن. فالتغذية السالبة تصحح حالة عدم التوازن وتعيد النسق الى حالة الاتزان، فالتغذية تقوم بوظيفتي الفحص والتنظيم.

بينما التغذية المرتدة الموجبة او الايجابية فهي تزيد من حدة الاضطراب داخل النسق وهذا ما يشير الى ان التغذية المرتدة السالبة تشير الى الميكانيزمات التي تحفز لحدوث التغيير، وعندما تبدا هذه الميكانيزمات بالعمل يقوم النسق بالتصحيح الذاتي لاستعادة حالة التوازن.

* **المحصلة المساوية: (Equifinalité)**

يعتبر النسق أحسن شرح لهذا المبدأ، ولفهمه لابد من تحليل التفاعلات التي تحدث داخل النسق خلال ملاحظتنا له وليس في أصلها فالنسق المنفتح أو المفتوح يكون أكثر مرونة من النسق المنغلق فيما يتعلق بالطريقة التي يتعامل بها مع المدخلات الخارجية الآتية إليه (التغيرات)، وما يميز النسق المنفتح أن الناتج النهائي يمكن تحقيقه وإنجازه من خلال مجموعة متنوعة من الطرق المختلفة فلو أغلق أحد الطرق، أو فشل أحد المكونات في أداء وظيفة فإن هناك طرقا بديلة ومكونات أخرى متاحة وبالتالي يمكن الوصول إلى نفس الهدف بطرق مختلفة وهذا ما يسمى بمبدأ المحصلة الواحدة (المساوية).

* **مبدأ التوازن الحيوي (Homéostasie) أو إتزان النسق الأسري:**

فقد أدخل (Jackson) مفهوم "التوازن الحيوي الأسري"، بعد أن لاحظ أنه إذا تحسنت حالة المريض، فإن لهذا غالبا إنعكاس خطير على أسرة المريض العقلي (اكتئاب، اعراض سيكوسوماتية...)

فأستنتج أن هذه العرضية التي يحملها مختلف أعضاء النسق إنها ترجع إلى "ميكانيزمات توازنية" (المقاومة) التي يكمن دورها في إرجاع النسق المضطرب إلى توازنه المرهف (délicat). معناه البحث عن التوازن وحاجة النسق الإنساني للتوازن الحيوي الذي تمليه الحاجة إلى البقاء على الحالة الأصلية من أجل ضمان هويته وبقائه، غير أن الجانب السلبي هو وجود مقاومة (ميكانيزمات توازنية) أمام التغيير مما يكبح الإمكانيات التكيفية للنسق لتغيرات في نسق أكبر.

فهنا الأسرة تحاول إستعادة البنية المستقرة كلما اختل نظام البيئة، إلى أن أفراد الأسرة لا يعودون للإتزان السابق لأنه ليس إتزانا صحيحا ولكن تبحث عن حلول جديدة تخرجها من حالة التوازن القديم وتحقيق الإستقرار خلال التنظيم والتغيير.

وبالتالي يعتبر مبدا التوازن الحيوي عبارة عن الية للتعديل الذاتي والذي يهتم بالمحافظة على ماهو موجود كالدفاع ضد كل ما يهدد استقرار النسق اثناء فترات التغيير.

**- مبدأ الإتجاه نحو الحياة والنمو: (néguentropie) ومبدأ الإتجاه نحو الإنحطاط: (entropie):**

يتحكم في النسق مبدأين: إما مبدأ الإنحطاط وهو حالة من اللاتنظيم المتزايد ونقص في الطاقة، أو مبدأ النمو وهو حالة أو زيادة معتبرة في الطاقة وهذا ما يدفع بالنسق إلى النمو، ويكون في هذه الحالة مدفوعا من الخارج أي بمساعدة المحيط مع دخول عناصر جديدة.

**- قواعد النسق الأسري:**

الأسرة نسق يحكمه قواعد، لأن التفاعل داخلها يسير وفق أنماط وقوانين أو قواعد معينة ثابتة، وهذه القواعد هي التي تسير سلوك أفرادها.

**- حدود النسق الأسري:**

تساعد الحدود على حماية إستقلال الأنساق الفرعية مع الحفاظ على الإعتماد المتبادل بينها، وتتسم ب:

* التعبير على الحدود من خلال التحالفات والائتلافات.
* الوضوح لتسمح لأفراد الأنساق الفرعية بآداء مهامهم بدون تداخل.
* النفاذية: حدود النفاذية تسمح بتسهيل تدفق المعلومات من النسق الفرعي وإليه.

**المحاضرة الخامسة (تابع للمحاضرة الرابعة)**

**6- العوامل التي تؤدي إلى سوء الأداء الوظيفي للأسرة وتشخيصها:**

عندما نطبق المقاربة النسقية على الاضطرابات النفسي فإن تشخيص نواة الإضطراب لا يرتكز على الحالة الداخلية للفرد، بل يبحث عن السببية المرضية في التفاعلات التي تحدث بين مختلف أفراد الأسرة (أنساق الأسرة) وبدلا من التركيز على الطريقة التي يفكر بها الأفراد فإن المعالج النسقي يميل إلى التركيز على التفاعلات التي تثار داخل النسق الأسري، فالهدف في العلاج النسقي هو تغيير السلوك داخل هذا النسق.

ومن بين العوامل التي قد تؤدي إلى سوء الأداء الوظيفي داخل النسق الاسري نجد ما يلي:

**ا- دورة حياة الأسرة:**

لقد ركز المعالجون الأسريون على أهمية التغيرات المرتبطة بدورة حياة الأسرة كمصدر رئيسي للضغوط وعدم التوازن، فهناك عدة تغيرات منذ بداية تكوينها بالزواج، ويترتب على ذلك أيضا تغيرات ينبغي أن تتم في النسق الأسري، حتى تعيش الأسرة حياة متوازنة، وإذا فشلت في التكيف للمطالب الجديدة فإن أدائها لوظائفها يضطرب ويسوء.

إذا فمطلب التغيير أمر عادي في حياة الأسرة، وأن سوء التعامل مع هذا التغيير هو الذي يخلق المشكلة، ويضيف (Aus Loos أوسلوس) في هذا الصدد أن هذه التغييرات في دورة الحياة ليست بالضرورة تشكل تهديدات حقيقية للأسرة لكن الخوف أحيانا على توازن الأسرة وأن آليات التسيير في خطر، هنا يصنع النسق الأسري آليات بديلة من أجل الحفاظ على التوازن الحيوي .

وبالتالي فإن فكرة أو بمجرد التفكير في ضرورة التغيير يؤدي للضغط الأسري وبالتالي فإن سوء الأداء الوظيفي داخل النسق الأسري يقابل هذا الضغط.

**ب-الإنصهار في الأسرة:**

قد يندمج بعض أفراد الأسرة في أحد الأنساق الفرعية إلى درجة أن ذاته تذوب وسط ذلك النسق الفرعي ومشكلة الإندماج مشكلة يمكن أن يترتب عنها آثار سلبية بالنسبة للعنصر المندمج أو حتى لباقي أفراد الأسرة لأنه بذلك يتنازل عن ذاته، إن الأفراد الذين لديهم درجة منخفضة من الإندماجية فإنهم يكونون منفصلين إنفعاليا عن أسرهم وقادرين على التصرف بإستقلالية كما يمكنهم أن يختاروا أن يكونوا عقلانيين في المواقف المشحونة إنفعاليا ومن الواضح أن إستقلالية الأبناء مرتبطة أصلا بإستقلالية آبائهم وعدم إندماجيتهم.

وبصفة عامة يتميز الأفراد المندمجين بقلة التمايز ويكونوا إستجابيين للضغوط البيئية وهذا بأحد الأساليب التالية: الإنسحاب، الصراع، سوء الأداء الوظيفي الزواجي، سحب الطفل إلى المثلث غير سوي.

**ج- تميع الحدود أو صلابتها:**

يفصل بين الأنساق الفرعية الأسرية مجموعة من الحدود والقواعد وهي التي تعد نوع من الإتصال داخل النسق الأسري، فإذا كانت الحدود تتميز بالتميع فتصبح غير واضحة وتغييب القواعد فيها وبالتالي يصبح المرور إلى الأنساق الفرعية سهلا مما يخرق قوانينها ويجعلها غير محترمة كإختراق النسق الأبوي من قبل الأطفال.....

اما إذا كانت الحدود صلبة والقواعد صارمة جدا فهذا يعرقل عملية الإتصال داخل النسق الأسري، وبالتالي من الأفضل أن يكون هناك توازن في الحدود حتى تكون هناك قواعد واضحة مما يسمح لكل فرد داخل النسق الأسري بالتميز والإندماج.

**د- عامل التفردن وسط الأسرة (Differentiation)**

يعتبر عامل التفردن داخل الأسرة الأصلية في غاية الأهمية، وهي توجيه الطفل نحو الإستقلالية في أحد مراحل عمره، تقول "ماهلر" (Mahler 1952 ) في هذا الصدد أن الطفل الذي يكون في علاقة إلتحامية مع أمه في مرحلة ما من مراحل نمو ويحاول بعد ذلك الإنتقال إلى إلاستقلالية والتفردن، هذه السيرورة لا تتحدد بالنضج البيولوجي فقط وعامل الوحدة النفسية طفل / أم، لكن هناك مجموعة من التفاعلات داخل نسقه الأسري، فهذه التفاعلات هي التي تحدد درجة إستقلالية كل فرد داخلها وهذا راجع إلى طبيعة التنشئة الأسرية الأصلية فمن الممكن حسب أندولفي Andolfi أن تكون في الأسرة الأصلية قوانين تتحكم في النسق الأسري تنفي إستقلاليته عن الأفراد الآخرين وبالتالي يصبح غير قادر على الانتقال من مرحلة الى مرحلة اخرى.